المحاضرة الثانية

خصائص السرد العربي القديم

السرد فعل لا حدود له

رولان بارت

للحديث عن خصائص السرد العربي القديم ننطلق من مقولتين لهما أهمية كبرى في ضبط المفاهيم واستنباط الخصائص، وتتبع الأنواع:

المقولة الأولى لرولان بارت يقول فيها: "السرد فعل لا حدود له حاضر في كل الأزمنة والأمكنة يمكن أن يؤدي بوساطة اللّغة المستعملة شفاهية أم كتابية أو بوساطة الصورة ثابتة أو متحركة، والحركة، وبوساطة الانسجام المنظم لكل هذه المواد، إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثولة والحكاية والقصة والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهاة، والإيماء واللوحة المرسومة وفي الزجاج المزوّق والسينما والمنوعات والمحادثات"[1].

والمقولة الأخرى لسعيد يقطين يقول فيها: السرد هو "نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلا للتداول، سواء كان هذا الفعل واقعيا أو تخييليا، وسواء تم التداول شفاها أو كتابة"[2].

من المقولتين نستنبط جملة من الأحكام نجملها فيما يلي:

1- السرد فعل أبدي لا حدود له، وجد منذ وجود الإنسان الأول وسيبقى مادام الإنسان باقيا، فهو فعل فطري فيه، المتغير هو النوع الذي يتمظهر فيه السرد، فالإنسان الأول مارس السرد في الأنواع البسيطة: الحكاية، الخرافة، الأسطورة، الأخبار... ثم مارسها بأنواع أكثر تطورًا في العصور الوسطى بوساطة المقامات والمنامات والسير والتراجم وأخبار الرحالة

[1] رولان بارت، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص09.

[2] سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، ص72.

والبحارة، والإنسان في العصر الحديث مارسه بوساطة الرواية، والقصة والأقصوصة... وهو اليوم يمارسه بالوسائط الرقمية من خلال القصة والرواية الرقميتين...

2- السرد جنس أدبي يتفرع إلى أنواع منها:

- الأنواع الثابتة: الخبر، الحكاية، القصة، السيرة.

- الأنواع المتحولة: أخبار الظراف والعشاق والحمقى، حكايات الصالحين، المقامات، السير الشعبية.

3- الأفعال الحكائية هي أفعال سردية بغض النظر عن طبيعتها (واقعية كانت أم خيالية) وعن أداتها التوصيلية (كتابة أو مشافهة).

4- المقصود بالسرد العربي القديم الدراسة العلمية لأنواعه الحكائية (المقامة، الخرافة، السيرة، الرحلة، الخبر...) بالبحث في مكونات البنية السردية (الراوي، المروي، المروي له)، ودراسته وفق ما انتهت إليه التيارات السردية[1] المعاصرة تحديدا.

التيار الدلالي لـ(بروب وبريمون وغريماس) والتيار اللساني عند (بارت وتودوروف، وجيرار جينت) والتيار النصي عند (جاتمان وبرنس).

ثم رصد التحولات الطارئة على بنيتها وصيغتها للوصول إلى كتابة تاريخ الأنواع السردية القديمة[2] وهو المشروع الذي نادى به "سعيد يقطين" ودعا إليه[3].

للحديث عن خصائص السرد العربي القديم تواجهنا صعاب وعقبات بسبب تعدد أنواعه ووفرة إنتاجه وتوزعه في مصادر متعددة تاريخية، أدبية، دينية، ومع ذلك نحاول استنباط خصائص مركزية للسرد العربي القديم، في هذه النقاط.

---

[1] للتوسع راجع ص 13 من هذه المطبوعة.

[2] ضياء الكعبي، السرد العربي القديم (الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص20.

[3] ينظر كتابه السرد العربي مفاهيم وتجليات، الفصل الرابع من الباب الأول، من ص86 إلى 111.

أولا. الشفاهية:

إن السمة البارزة في موروثنا الثقافي هي سمة المشافهة، "فالرواية الشفوية ظلت طوال القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد الأداة الأساسية لنقل المعرفة"[1].

حتى إن التدوين لما ظهر فهو "لم ينهض إلا بمهمة تقييد المرويات الشفاهية"[2]. فالشفاهية أصيلة في الفكر العربي في مختلف المجالات المعرفية (الدينية، الأدبية، التاريخية...) فالجاحظ وهو من أئمة الفكر العربي يؤصل هذه الفكرة من خلال ذمه للكتابة والكتاب، يقول: "لو كانت الكتابة شريفة والخط فضيلة، كان أحق الخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتهم، وذوو القدر والشرف فيهم، ولكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك وجعل الخط فيه دنية، وصد العلم به عن النبوة"[3]. فالنسق الثقافي الذي يتحرك فيه الجاحظ، والموروث المعرفي الذي توارثه هما وراء هذا الانزياح للمشافهة وتفضيلها على الكتابة. وللتذكير نقول أن مركزية المشافهة لم تقتصر على الثقافة العربية، بل هي كذلك حتى في الثقافات والحضارات التي سبقتها، خاصة عند اليونان فأفلاطون يجمع لنا اعتراضات أستاذه سقراط (ت339ق.م) على الكتابة وقد أجملها في أربعة أسباب: أولها أن الكتابة تضعف الذاكرة، وثانيها أنها تقتصر على تقديم نص صامت، وثالثها أنها تجعل المعرفة مبذولة لأهلها ولغير أهلها، ورابعها أنها تحصر مسؤولية الكاتب في الكتابة لأنه يكون غائبا ساعة القراءة فيضيع الكثير مما قصد إليه، ويغدو عمله أشبه باللعبة[4].

نعود للحديث عن السرد العربي فنقول "إن السرود العربية القديمة هي سرود شفاهية بامتياز، فهي "فن لفظي"[5] يقوم على التواصل المباشر بين الراوي والمروي له، وهذا ما يؤكده الخطاب الاستهلالي في المقامات العربية مثلا والتي تبدأ عادة بفعل حدثنا، حدثني، أخبرنا،

---

[1] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي (دراسة في السردية العربية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص171.

[2] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص15.

[3] الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج2، ص180.

[4] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص147.

[5] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص15.

روى... وكذا في السرود الأخرى كالأخبار والأسمار والأحاديث والحكايات والخرافات، فالشفاهية هي العنصر المهيمن فيها.

فالسرد العربي "نشأ في ظل سيادة مطلقة للمشافهة، ولم يقم التدوين الذي عرف في وقت لاحق لظهور المرويات السردية، إلا لتثبيت آخر صورة بلغها المروي، الأمر الذي يؤكد قضية تاريخية مهمة، وهي أن المدونات السردية، لا تمثل سوى المرحلة الأخيرة التي كان عليها المروي قبل تدوينه"[1].

وقد أجرى عبد الله إبراهيم موازنة بين السرود الشفوية والسرود الكتابية[2] انتهى إلى التمييز بينها في الإطار والبنية، يمكن أن نجمل هذه الفروق فيما يلي:

1- المرويات السردية الشفاهية تتألف من الراوي وحكايته والمتلقي الضمني. أما السرود الكتابية، فإنها تتألف من محاكاة أو تمثيل لكل من الراوي وحكايته والمتلقي الضمني.

المرويات السردية الكتابية، فيما مساحة واضحة بين مكونات البنية السردية (الراوي، المروي، المروي له)، فالراوي يتعين بسماته أو بالمسافة التي تفصله عما يرويه، كما أن المروي له يتعدد بتعدد الرواة. أما السرود المكتوبة فهي تغيّب إلى حد كبير المسافة بين مكونات البنية السردية، فغالبا ما يتخّفى الراوي وراء "ضمير" يحيل إلى شخص مجهول.

السرود الشفوية سرود (عرضية)، أما السرود المكتوبة فهي تتسم بـ(الديمومة) كون الأولى تتغير بتغير العصور والرواة في حين تظل الثانية خالدة.

ثانيا. الإسناد:

الإسناد والمشافهة سمتان طبعتا الثقافة العربية في أصولها الأولى، فالمشافهة اقتضت الاهتمام بالإسناد والرواية، قصد التثبت من صحة القول، والإسناد أكتسب مشروعيته الدينية، لأن به يتم تأكيد صدق الأحاديث النبوية، يقول عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين، ولولا

[1] المرجع نفسه، ص16.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص15-16.

الإسناد لقال من شاء ما شاء"[1]. لهذا احتل الإسناد الصدارة عند علماء الحديث البنيوي، بل يعد خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية فالله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد. فهو علم خاص بالأمة الإسلامية، ولم يقتصر الأمر في الإسناد على الحديث النبوي بل تعداه إلى الحقول المعرفية الأخرى شأن: علم التراجم والسير، والأخبار والقصص والتاريخ والمغازي...الخ. و"تجلى في المأثورات الشفاهية السردية بثنائية الراوي والمروي"[2]، فالأخبار والأقاصيص والسير الشعبية تولي أهمية كبرى للإسناد، فهو "عملية يقوم بها الراوي تتمثل في إنشاء خيط واصل بينه وبين مصدر الخبر، وهذا الخيط هو السند"[3] لأن من معاني السند اللغوية الرفع أي رفع الخبر أو الحديث إلى قائله الأول دون انقطاع في الرواية، ولهذا عدّ علماء الحديث النبوي، الحديث الذي سنده غير متصل حديثا مرسلاً.

إلا أن الإسناد في كتب الحديث النبوي، قيمة، وفرض كفاية وضرورة شرعية لصحة النقل والرواية، واتصال السند بالرسول صلى الله عليه وسلم، لأن كلامه مصدر من مصادر التشريع في الإسلام. أما الإسناد في الأدب، فهو زينة وحلّة حافظ عليها فريق من الأدباء، وأهملها فريق آخر، ففي القرن الرابع للهجرة أولى كل من القالي في (الأماني) والأصبهاني في (الأغاني)، والتنوخي في (الفرج بعد الشدة)، الإسناد أهمية بالغة. في حين نجد كل من الوشاء في (الموشي في الظرف والظرفاء) وابن عبد ربه في (العقد الفريد)، والصولي في (الأوراق) لم يستخدموا الإسناد إلا نادرًا[4].

يعقد "محمد القاضي" فصلاً كاملا لخصائص الإسناد ووظائفه في كتب الأدب عامة وكتب الأخبار خاصة، بيّن فيه الفروق الجوهرية بين الإسناد في الحديث النبوي والإسناد في الأخبار الأدبية. نجمل هذه الفروق في نقطتين أساسيتين هما:[5]

---

[1] الحاكم النيسابوري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، معرفة علوم الحديث، تصحيح وتعليق السيد معظم حسين، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ص06.

[2] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص45.

[3] محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص227.

[4] للتوسع، العودة إلى كتاب الخبر الأدبي لمحمد القاضي، من ص255 إلى ص302.

[5] ينظر، محمد القاضي، الخبر الأدبي، ص303.

1- الإسناد في الأحاديث النبوية عملية سلوكية نفعية إلى جانب كونها اعتقادية إيمانية، أما غاية رواة الأخبار فهي المتعة الفنية التي تحصل للقارئ أو السامع من خبر معين.

2- الإسناد في الحديث النبوي وسيلة لتحقيق الحديث أي للبرهنة على أنه حقيقي قد صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم فعلاً، أما الخبر الأدبي فالإسناد فيه وسيلة للمشاكلة أي إيهام القارئ أو السامع بأن الخبر ممكن الوقوع إن كان مساره على الأحداث، وممكن القول إن كان مساره على الأحاديث.

يبقى الإسناد في السرود العربية القديمة ركيزة أساسية وزينة فنية، فهو "يستخدم لترسيخ الخبر في الواقع التاريخي، فإن لم يكن ذلك للإقناع بوقوع الأعمال، فإنه للبرهنة على وقوع الأقوال"[1]. كما أن القارئ للسرود العربية القديمة بأسانيدها، تمكنه هذه الأداة من: "توضيح الحركة التي انتظمت أدب الأخبار في مساره الطويل وعن طريقها يمكننا أن نقف على التيارات المؤثرة في هذا الأدب والموجهة له، وهي تيارات مختلفة بعضها عربي وبعضها غير عربي"[2]. أيّ أن الأسانيد تفيدنا في معرفة الأنساق التاريخية للنصوص الأدبية، كما تمكننا من فك شفرات النص والوقوف على دلالاته المختلفة.

ثالثا. البنية السردية:

إن السرود العربية القديمة (الأخبار، الأقاصيص، الحكايات، الخرافات، المقامات، المنامات، الرحلات...) على تعددها ووفرة نصوصها تتحكم فيها بنية سردية، يمكن أن نصنفها إلى صنفين، بسيطة ومركبة:

1- البنية السردية البسيطة: وهي بنية تتحكم في هذه الأنواع: النوادر، الأخبار، المقامات، المنامات، الأساطير، الحكايات.

2- البنية السردية المركبة: وتبرز تحديدًا في أدب الليالي (ألف ليلة وليلة أو مائة ليلة وليلة) وأدب السير الشعبية (السيرة الهلالية، سيرة الأميرة ذات الهمة...الخ).

إلا أن المشترك بين السرود العربية القديمة، هو تظافر وتلاحم هذه المكونات السردية.

---

[1] المرجع نفسه ، ص333.

[2] المرجع نفسه، ص346.

الراوي ← المروي ← المروي له

- الراوي باعتباره المنتج للنص الحكائي.
- المروي باعتباره المادة الحكائية وكل ما يصدر عن الراوي.
- المروي له وهو المتلقي للمادة الحكائية.

وهي مكونات متلاحمة "فكل مكوّن لا تتحدد أهميته بذاته، إنما بعلاقته بالمكونين الآخرين، وأن كل مكوّن سيفتقر إلى أي دور في البنية السردية، إن لم يندرج في علاقة عضوية، وحيوية معهما. كما أن غياب مكوّن ما أو ضموره، لا يخل بأمر الإرسال والإبلاغ والتلقي، فحسب، بل يقوض البنية السردية للخطاب"[1].

كما أن هذه المكونات (الراوي، المروي، المروي له) في السرود العربية القديمة، بينها مسافة واضحة "فالراوي غالبا ما يكون متعينا، سواء بسماته أو بالمسافة التي تفصله زمانيا عما يروي، بحيث يروي أحداثا، لا تعاصره، كما أن (المروي له) يتعدد تبعا لتعدد الرواية، ويتكاثر كلما تكاثر عددهم، والأمر نفسه ينطبق على (المروي)، الذي يكون مباحًا أماما عدد غير معروف من الرواة يتكاثرون بتوالي الأزمان"[2].

بقي أن نشير إلى أن ثمة فروق دقيقة بين هذه المكونات (الراوي، المروي، المروي له) في السرود العربية القديمة خاصة بين الحكاية الخرافية والسيرة الشعبية والمقامة العربية، وهذا ما نفصله في المحاضرات الموالية.

ونكتفي في هذا المقام ببيان سمات البنية السردية للمقامة العربية حتى يتمكن الطالب من إدراك طبيعة هذه المكونات.

نقول أن الأفعال الحكائية في المقامات العربية تتوالى وفق منطق خاص بها، وتترابط فيما بينها بعلاقات وظيفية، تشكل هذه العلاقات قواعد مشتركة بين مجموع المقامات، تتوالى مدارات البنية السردية وفق هذا النسق (الخروج، التخفي، التجلي).

---

[1] عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص14.

[2] المرجع نفسه، ص15-16.

– **الخروج:** تبدأ حكايات المقامة عادة بالإخبار عن الخروج، خروج الراوي نحو غاية معلومة أو مدينة محددة "كنت بأصفهان أعتزم المسير إلى الريّ فحللتها حلول الفيء"[1].

– **التخفي:** يواجه الراوي في المقامات بطلا عادة ما يختار التخفي لتحقيق مآربه تخفيا يكون إما بوساطة قناع أو كساء أو بانتحال شخصيات أخرى.

– **التجلي:** تنتهي المقامات في –الغالب– إلى تعرف الراوي على البطل، ويكون عادة في نهاية المقامة، بعد أن يقع الراوي ضحية مكيدة ومصيدة من مصائد البطل "فأماط لثامه، فإذا هو شيخنا أبو الفتح الإسكندري"[2].

وعلى هذا فكل دارس للسرد العربي القديم أن يراعي في دراساته، الأنساق الثقافية المنتجة للسرود العربية القديمة، وأن ينظر إلى السرد العربي القديم في إطاره العام مراعيا خصائصه المركزية: المشافهة، الإسناد، البنية السردية.

وبعد هذا التأطير النظري للسرد العربي القديم، نبدأ في كشف النقاب عن السرود العربية القديمة، وتكون البداية مع أدب السير عامة والسير الشعبية خاصة بالحديث عن ماهيتها وكشف معالمها الفنية، وتجلياتها الإبداعية.

رابعا. نص للتطبيق:(*)

"احتّل السرد منذ أقدم العصور ومازال مكانة معتبرة في الحياة العربية وكان أساسا مُهما من أسسها، لذلك فإن الحديث فيه وعنه مغامرة شاقة وشيقة لأسباب عدة منها غواية السرد وفتنته وشدّة أسره والفضول الذي يحسه الإنسان تجاه الماضي وتجاه السابقين، ومنه خصوصية السرد العربي بكل أنواعه عندما كان قائما في إحدى مراحله على الرواية والنقل الشفهي، ومنها وفرة المادة السردية العربية وتشعُبها مصادر وموضوعات وأغراضا وأنواعًا ودراسات وآراء أيضا، ومنها كذلك الدور الكبير الذي قام به في صياغة العقل العربي وإقامة صرح المشروع العلمي العربي عندما كحان أحد أهمّ الأدوات التي صيغ بها، نظرًا للأفُق المعرفية الكثيرة التي

---

[1] الهمذاني، المقامات، شرح محمد عبده، سلسلة الأنيس، المؤسسة العربية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص79.

[2] المصدر نفسه، ص14.

(*) يمكن للأستاذ في حصص التطبيق الوقوف مع هذا النص، وتفكيك مفاهيمه بغية استنباط خصائص السرد العربي القديم.

يفتحها أمام منتجه ومُتلقيه. وللإحاطة به ليس لدارسه بدُّ من النظر في مظانه ووظائفه وغاياته وخصائصه وبنياته وعلاقاتها بعضها ببعض، لأن السرد أو الرواية أو الحكي أو القص باعتباره استعادة للماضي وتمثلا له كان بمختلف أشكاله وأنواعه محكوما بنسق حياتي معين انعكس على بنية المروي ووجَّهها لخدمة أغراض ومقاصد معينة كانت من صميم احتياجات العربي".

كتاب السرد العربي القديم، ص11

لإبراهيم صحراوي (كاتب من الجزائر)